

الفصل الثاني

ديانة الإيرانيين القدماء

كانت مجموعة القبائل التي سكنت الهضبة الإيرانية قد جاءت من مناطق بعيدة شتى تحمل معها معتقداتها، وبمرور الزمن تقاربت أفكارها في إيران، وتمخضت عن معتقدين هما الشمالي الغربي متأثراً بالفكر الهندي والصيني القديم، وأما الجنوبي الشرقي فكان متأثراً وادي الرافدين القديمة، وأقدم ديانة في إيران هي ديانة الإله مازدا التي تنسب إليه قوى الطبيعة، ثم تطورت إلى الديانة الإسفينية القائلة بوجود إلهين أحدهما للخير، وهو أهورا مازدا والآخر إله الشر، وهو أهر يمان، تقوم هذه الديانة على معتقدات خرافية تدور حول الصراع بين إله النور وإله الظلام، ثم توضح الاعتقاد الديني بصورته الزرادشتية، فالخالق عندهم خلق جميع الموجودات من العدم، وصارع الظلام، ولذا فإن النار مقدسة عندهم؛ لأنها رمز للنور تستحق العبادة، ولذا فقد اتخذوا بيوت النار معابد لهم، وتدور فلسفتهم حول كون الإله أهورا مازدا إله غير متناهٍ؛ لأنه يخلق مخلوقات غير متناهية ومستمرة في الحياة بخلاف إله الظلام من صفاته محدودية القدرة، حيث خلق الشياطين المستترة بالظلام والهاربة من إله النور، وحياة الإنسان صراع بين هاتين القوتين، وتعتقد هذه الديانة أن الهزيمة ستحل بإله الظلام هو وشياطينه. وتدور ديانتهم ومعتقداتهم حول أساطير اعتقدوا بها، فيرون أن أهورا مازدا قد خلق السماء، وخلق فيها أبراجها ٢٧ وكل برج يتبعه كثير من النجوم، وتلك الأبراج لها قوى تتمثل على الأرض في مواسم وظروف مختلفة، فهم يتفاءلون بدخول بعض الأبراج، ويتشاءمون بدخول برج العقرب مثلاً.

وهذا المعتقد نرى أثره في كتب فقه الشيعة الإثنا عشرية، ففي باب النكاح يشيرون إلى كراهية الزواج فيه، ويعتقدون أن روح الإنسان الخيرة الطاهرة تتحد بخالقها أهورا مازدا الذي يدلها على الخير، ويجنبها الشر. ومن أساطيرهم أن أهورا مازدا يتجسد عن طريقة دخوله في المطر الذي يسبب ظهور النبات ومنه يعيش الحيوان والإنسان، وهذه الفكرة من بواكير فكرة الحلول ووحدانية الوجود التي اعتقدت بها بعض الصوفية والمذاهب وديانات يهودية ونصرانية شتى. ومن أساطيرهم أن أهر يمان إله الشر يهاجم مخلوقات أهورا مازدا في السماء والأرض، ويسبب الضرر بهذه المخلوقات، وخاصة الإنسان، فيدافع أهورا مازدا عن مخلوقاته، والصراع مستمر بينها.

ويتبع أهورا مازدا ملائكة يساعده كما لإله الشر أهرمان شياطين يبثهم لأعماله الشريرة، فمثلاً الشيطان أبوش حينما ضربه الملك إسبندرجارغاك صاح، فكان الرعد في السماء صوته والبرق علامة لذلك، فتكون منها مياه الأنهار والبحار^(١).

وبحسب معتقدهم في خلق الإنسان أن أهورا مازدا تسبب في خلق وإنبات شجرة الرواند، بحيث ظهر أسفلها من الأرض الرجل والمرأة ملتصقين، فبث فيهما أهورا مازدا الروح، فانقلبت شجرة الرواند إلى رجل وامرأة، وكان هذا بعد مدة طويلة.

والذنوب التي لحقت بالإنسان بعد ذلك كانت نتيجة لإصغاء الإنسان إلى ما يبثه أهر يمان من نيات شريرة.

ومن أساطيرهم عن الطوفان أن الإله أهورا مازدا قال للراعي الصالح جمشيد: إنه ستنزل الثلوج على الجبال، ويحل الطوفان في الأرض بسبب ذوبانها،

(١) ساهر رافع: المصدر السابق، ص ٨٠ ومن المأثور من أحاديث الشيعة الإثنا عشرية أن الإمام علياً لم يمت، وأن الله قد فوضه بتدبير الكون، وهو في السماء الرعد صوته والبرق سوطه.

وطلب منه أن يصنع سفينة يضع فيها من كل زوج اثنين؛ لأن الطوفان سيقضي على جميع من على الأرض.

ومن أساطيرهم أن أزي دهاقة (عند العرب الضحاك) كان ابناً لملك العرب مرداس، وأن الضحاك ما هو إلا أحد الشياطين ذوي القدرة على منع المطر، وهو دائماً محب للهو والطرب والصيد، وتدخل إله الشر أهريمان، فدفع الضحاك إلى أن يحكم الإيرانيين والأشوريين والبابليين والعرب، وأكثر الأساطير تدور حول خصومات الحكام فيما بينهم حيث تعمل أساليب الخير والشر عملها، وتتعدى هذه الأساطير إلى رغباتهم في حكم بابل واليمن^(١).

الديانة الزرادشتية :

إن أكبر تحول في الديانة الإيرانية القديمة تم على يد زرادشت، وأفكاره كانت مبنية على أصول الديانة المثنوية التي سبق شرحها أعلاه مع إضافة عناصر من ديانات الهند القديمة خاصة الهندوكية، وقد قيل: إنه رحل إلى الهند وإلى وادي الرافدين، وولد زرادشت قرب مدينة بلخ شرق إيران في حدود سنة ٦٦٠ ق.م، وتعني كلمة زرا (الأصفر) ودشت (الجمل).

وتحيط ولادة زرادشت الكثير من الأساطير حيث تقول الأسطورة: إن ثوراً نطق، وبشر بمولده والبقرة تحاط بالقدسية في الديانة الهندوكية، وإن أفريدون البطل الأسطوري في الديانة الفارسية القديمة هو أحد أجداده، وتعتقد الهندوكية أن البقرة مقدسة بسبب حلول الإله فيها، وتقول الأسطورة: إن أمه كانت تشع نوراً حينما حملت به، فكانت هدفاً لمهاجمة إله الشر أهريمان، ولكن أهورا مازدا أحاطها بالرعاية، وحينما ولدته خرج وهو يضحك خلافاً للمواليد الذين يكون عادةً، ونشأ في ظل ورعاية أحد الرهبان هو وأمه، ولما كبر جاءه

(١) ساهر رافع: المصدر السابق، ص ١٣٤.

الوحي من السماء على شكل عمود من نور، وتكرر ذلك؛ ولذا يُعدّ عندهم من الأنبياء، وقد كتبت آراؤه في كتاب الأفتستا، وتعرض زرادشت إلى المهانة والطرده والسخرية من أفكاره حتى اقتنع بها الملك الفارسي (كشتا سب) بعد أن رأى من المعجزات ما أبهره حيث تذكر الأساطير أن زرادشت جعل الملك يرى روضة من الجنة، ولبي طلبه بطول العمر، وأن يتحول جسده إلى حديد لا تؤثر به النار.

وفرض هذه الديانة على العموم، وقد كتبت الأفتستا بلغات قديمة عدة، وتختلف كل من نسخها عن بعضها البعض، وترجع بعض تعاليم زرادشت الواردة في الأفتستا إلى ديانة وادي الرافدين. وأورد في الأفتستا شطراً من حياته، وما جرى له مع الأمراء والكهنة، وكتب التاريخ العربية تذكر زرادشت، وأن ما كتبه في الأفتستا غير معلوم أو غير مفهوم؛ ولذا حينما نقل وترجم إلى لغات أخرى اضطروا إلى فك رموزه ومعانيه بحسب مفهوم الناقل أو المترجم وبالعربية سمي كتابه هذا كتاب الزند، حيث كان معلوماً ومتمداً أولاً في العهد العباسي.

وتحتوي الأفتستا القديمة على ٢١ سفرًا كتبت على جلود البقر من قبل زرادشت وشاركه تلامذته، وقد ضاعت هذه الأسفار عدا واحداً منها، ويذكر أن الإسكندر الأكبر حينما احتل إيران أحرق نسخ الأفتستا؛ ولذا يذكر في مآثوراتهم، ويسمونه إسكندر الملعون والسفر الباقي حتى اليوم اسمه الكاتاها، ويحتوي على أسفار عدة.

- الأول سفر الياسنا: ويحتوي على أدعية وصلوات وأناشيد.
- والثاني سفر الفيسبرد: ويحتوي على كثير من الفصول التي فيها كثير من الترانيم الدينية.
- والثالث سفر الفينديداد: ويحتوي على تعاويد وترانيم ضد الشياطين.
- والرابع سفر الياشتا: ويحتوي على ترانيم عدة تعلي من قدر الكائنات الروحية (الملائكة).

- والخامس سفر الأفيستا: ويحتوي على أدعية وصلوات كتبها أحد الكهنة وتعاليم أخلاقية وأدبية في الحياة والعلاقة مع الناس.

وأكثر تعاليم زرادشت تدور حول تقديس الماشية وتمجيدها خاصة الثور والبقرة والمراعي والدور الذي يقوم به راعي الماشية الطيب كما تدور حول تقديس القمر بمجموعة من الأناشيد والترانيم وتقديس الإله أهورا مازدا والملائكة الذين يساعدونه، كل ذلك محشو بالأساطير والمعجزات التي تدور حول تلك القوى، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن هذه الديانة تقضي بوضع الميت في مكان عالٍ يصنع عادة من خشب يسمى (الدراخما) حيث تأتي الطيور الجارحة، فتأكل أجساد الموتى معتقدين أن روح الميت ستحل بهذه الطيور، وتسعد بها خاصة المؤمنين منهم، ويبدو أن فكرة الحلول هذه من تأثير الديانات الهندية القديمة.

وقيمة دراسة الإيرانيين القديمة وما ورد فيها من أساطير له علاقة ومؤثرات بالتشيع، وخاصة التشيع الإيراني الصفوي، فلا يمكن فهم ذلك السيل الكبير من الأساطير والمعجزات التي ذكرت في كتب الحديث عند الشيعة الإثنا عشرية خاصة ما تعلق منها بالأئمة الاثني عشر.

ويبدو لي أن هذا الموضوع لم يدرس جيداً، ويحتاج من الباحثين إلى التعمق والربط بين تلك الأساطير القديمة، وما سجله، ونقله مثلاً محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) فقد أورد فيه حديثاً منسوباً لأحد الأئمة بأن الأرض واقفة على قرن ثور، وأن الهزات الأرضية ترجع إلى تعب الثور، وتحوله الأرض إلى قرنه الآخر، وحوث تلك الأحاديث أثراً من حرق الموتى وذررمادهم في النهر^(١) وما أشرنا إليه سابقاً من اتفاق الأسطورة المتعلقة بأن الرعد هو صيحة الإله أهر يمان واتفاق ذلك مع حديثهم المنسوب بأن الرعد صوت الإمام

(١) فاضل الربيعي: النياحة العظيمة، ص ٨٨، دار للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ٢٠١٣م.

علي، وأن البرق سوطه، ويشير الدكتور فاضل الربيعي إلى أن الفرس قديماً قد تأثروا بعبادة البكاء والنواح على الميت من اتصالهم بالحضارة الأشورية، حيث كان البكاء في بابل في معابدها بمناسبة الأسطورة الدينية التي تذكر بكاء الإلهة عشتار ونواحيها على تموز. ومن المعلوم أن الإيرانيين الساسانيين اتخذوا المدائن عاصمة لهم، وهي لا تبعد كثيراً عن بابل^(١). انظر: كتابنا (جذور التشيع) وكتابنا (الزواج المؤقت) موضوع (حرق الموتى).



(١) حسن برنيا: تاريخ إيران القديم - ص ٣١١ وما بعدها - ترجمة د. محمد نور الدين عبد المنعم - د. السباعي محمد السباعي - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩ م.